– ماذا ينتظر هؤلاء العربيم؟
أجابته دون أن تلتفت اليه، وهي تقطع الطريق:
– انهم يبحثون عن عمل! (ص ٦٠).

في هذه القصة، يتخلص سلمان ناطور من أفكاره المسبقة، ويترك للشخصيات حرية الافصاح عن أفكارها، فتكتسب القصة غنى وعذوبة، وتتجذر دلالتها. وبود بالغ، يرسم شخصية الرجل الخمسيني من مخيم جنين، الوجه الآخر لشخصية «حسن الكسيح» في «إلى الجحيم أيها الليلك» عند سميح القاسم. وفي الجو المسموم بالعنصرية، أدرك الكاتبان ومارسا، حرية التنفس دون التحول إلى العنصرية المضادة.

قبل احتلال الضفة، كان الرجل الخمسيني، يعمل في حانوت اقامه في مخيم جنين. وأغلقه بعد أن هدده رجال الأمن بهدمه إذا لم يتعاون معهم. رفض وأغلق الحانوت وفتح غيره من اهالي المخيم حوانيت ازدهرت خلال عامين: «ابن المختار، وابن شاويش البوليس، وواحد كلب ابن كلب، كل عمره ذنب حكومة (ص٦٢).

الرجل الخمسيني، المولود في قرية (الكرك) على الكرمل، والمقيم في مخيم جنين، حيث يسكن مع عشرة من اولاده، وبعد أن أغلق حانوته، ها هو يبيع قوة عمله، مع حشد من العمال في «ساحة باريس».

المحامي الفلسطيني الأنيق، يوبخ العمال، وهو في طريقه إلى المرصاف العمومي: «بهدلتونا، انظبوا في بيوتكم! وطيتوا راسنا قدام الأجانب»! وعندما عاد إلى مكتبه، كان عمال الساحة يعرضون عليه قضية شاب اعتقلته الشرطة لأنه وقف في طليعة مظاهرة في جنين، احتجاجاً على معاملة حرس الحدود لأهالي المخيم، بعد أن هدموا بيتاً، وأخذوا الرجال وأهانوهم وضربوهم» (ص ٦٣).

هنا يحدث التقابل – المحك بين الرجلين. المحامي لم يخجل حين طلب اجرة اتعابه «عشرة آلاف ليرة» ولم يخجل العمال، حين تركوه وعادوا إلى ساحة باريس، ينتظرون سيارة الخواجة لتأخذهم بخمسين ليرة لا أكثر!!

هكذا تعيش الأفكار وتحيا في الأدب، عندما تستمد حياتها من الشخصيات والمعايير الجمالية، لا من الوعظ السطحي والتعليقات. فقصة «حائط الدرج النازل إلى مراحيض الرجال»، شهادة انتماء حقيقية، فكرية وسياسية، إلى العمال، الذين يضحون بحوانيتهم من أجل شرف الوطن، ويبيعون قوة عملهم من أجل لقمة العيش، فيما فر الشرف، إلى الأبد، من صدر المختارالثالث والمحامي الأنيق واشباههما.

وفي «إعادة نظر في شقوق الوجه الفلسطيني» يصور الكاتب لحظة تقابل المواطن الفلسطيني «أبو محمد»، ذي الواحد والثمانين عاماً، مع قريته «خربة أبو حرب» بعد واحد وثمانين عاماً من الاحتلال على التمام والكمال (ص٦٨) فالجملة الوصفية، تحمل على المستوى الفكري، الوظيفة الرئيسية والمحورية، فالنضال ضد الاحتلال مدة واحد وثمانين سنة، تعني أن النضال الفلسطيني، في مراحله الثلاثة، العثماني فالبريطاني فالصهيوني، هو نضال ضد الاستعمار ولذلك راهن أبو محمد على الأرض:

«سأدفن نفسي في هذه الأرض كي أظل ثابتاً لا اتغير...مثلي مثل هالتراب» (ص ٧١).

عند الحاجز، يرفض الشرطي الصهيوني أن يعترف بوجود «خربة أبو حرب»، التي تحول اسمها إلى نير عتسيون، لكن الرجل يقول: هذا الحمار يا خواجه لا يفهم لغتكم (ص ٧٢) فالرجل والحمار ينكران على الشرطي مصادرة الذاكرة والواقع القريب، وينسحبان. وربما، لو أفسح الكاتب المجال أمام الحمار، لمحاورة الشرطي لتمكن من اعادة توكيد كل الدلالات في البناء الفني.

وفي قصتي «الحنتريش ضيف المستر بروكر» و«ام الزينات»، يلتقط الكاتب جوانب من المأساة الفلسطينية في النكبة الاولى، وبذلك يستكمل لقصته البانورامية، الشديدة الولاء لشخصية شعبه الوطنية، ومحتواها الديمقراطي.